صراع الخطابات في الملهاة الفلسطينية لإبراهيم نصر الله

Conflict of discourse in the Palestinian comedy by Ibrahim Nasrallah

مساعدية أسماء

*♣

تاريخ الإرسال: 2020/08/16	تاريخ القبول: 11 / 09 / 2020	تاريخ النشر: 30 / 03 / 2021

الملخص:

استطاع إبراهيم نصر الله من خلال ملهاته ،أن يشكل مجتمعا فلسطينيا متفردا بمعاناته ،يجتر آلامه ببطئ محاولا أن يستعيد ما وقع منه في رحلة الشتات منذ عام النكبة إلى يومنا هذا،فلامس بذلك الذات الفلسطينية المرهقة،المتأزمة بعد كل ما تجرعته من نكسات وانكسارات متتالية،لذا سنحاول في عملنا هذا أن نرصد المتغيرات ونلامس الهزات التي جسدها إبراهيم نصر الله في ملهاته،على شكل خطابات و ونزاعات اجتماعية بالاعتماد على المنهج السوسيونصي الذي يتيح لنا الكشف عن الوضع الاجتماعي اللغوي وقراءة المصالح والنزاعات الاجتماعية في شكل صراع خطابات ولهجات اجتماعية.

الكلمات المفتاحية:

فلسطين،صراع الخطابات، النزاعات، وعي الطبقة ، نزاع صوتين.

المؤلف المرسل:مساعدية أسماء **Khel.lotfi@gmail.com**

*العنوان المهني :جامعة باجي مختار عنابة

♣ البريد الإلكتروني: **Khel.lotfi@gmail.com**

Abstract:

Ibrahim Nasrallah was able, through his talents, to form a unique Palestinian society with his suffering, slowly ruminating his pain in an attempt to recover what happened from him in the diaspora journey from the year of the Nakba to the present day. Therefore, in our work, we will try to monitor the variables and touch the tremors that Ibrahim Nasrallah embodied in his talents, in the form of speeches and social conflicts based on the sociological approach that allows us to reveal the linguistic social situation and read interests and social conflicts in the form of conflict of letters and social dialects.

***Key words**: Palestine, conflict of discourse, conflicts, class awareness, two-voice conflict.*

*** *** ***

مقدمة:

تجسد الرواية تحولات المجتمع وفوضاه عبر لغتها التي تحمل أنساقا سردية وفكرية وخطابية تلخص في مجملها رؤية الكاتب لعالمه ووعيه لواقعه،وتعد الملهاة الفلسطينية ل"إبراهيم نصر الله "من أكثر الأعمال الأدبية التزاما بقضية الوطن،كونها استطاعت أن تغطي ما يقارب 250 سنة من تاريخ فلسطين وتستطبن الحالة الفلسطينية في انكساراتها وهزائمها،لهذا استوعبت الملهاة الفلسطينية كل الهزات والمتغيرات التي عرفها الراهن الفلسطيني على شكل خطابات وصراعات اجتماعية يمكننا كشفها من خلال بنية النصوص السردية لأنها (تشكل عالما متجانسا نسبيا، إنها تحاكي وتعيد إنتاج الواقع وتتماثل معه بشكل ضمني أو صريح مع هذا الواقع)[1].

لامس"إبراهيم نصر الله"تخوم الواقع وولج إلى عمق المجتمع الفلسطيني من خلال رواياته*زيتون الشوارع**تحت شمس الضحى**أعراس آمنة*لهذا سنحاول رصد هذا الواقع وفق مقولات المنهج السوسيونصي وما قدمه"بيير زيما"حول الوضع الاجتماعي اللغوي وقراءة المصالح والنزاعات الاجتماعية في شكل صراع خطابات ولهجات اجتماعية ف(العلاقة بين الأدب(النص)والمجتمع لا يمكن العثور عليها إلا من خلال اللغة إن للأدب وظيفة لفظية في علاقتها بالحياة الاجتماعية)[2]وسنعتمد على المباحث الآتية لسبر غور الراهن الفلسطيني في الملهاة.

1-الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

وضعتنا رواية"زمن الخيول البيضاء"منذ الوهلة الأولى في قلب الصراع الفلسطيني الإسرائيلي،الذي تجسد أولا عبر البنية السردية للرواية ،لأن أحداثها قامت في قرية الهادية،التي ظل سكانها يقاومون العدو إلى آخر لحظة(أدرك الإسرائيليون أنهم لن يستطيعوا احتلال الهادية بالقوة،فأرسلوا عن طريق موظفي هيئة الأمم أنهم يريدون التفاوض للوصول إلى حل)[3].

يكشف لنا هذا الحوار الذي دار بين الجانب الفلسطيني والجانب الإسرائيلي،حدَّة النزاع بين الطرفين،والذي كان يشتد و يتنامى بتنامي أحداث الرواية ((-سنعتبركم أسرى حرب،ولستم أفضل من جنود هتلر الذين استسلموا،ستعيشون بدل أن تموتوا في القتال أو بسبب الجوع.

-وما علاقتنا نحن بجيش هتلر،فانتم الذين تعتدون علينا وتريدون إخراج الناس من بلادهم.

-ولكن هذه البلاد بلادنا،وقد وعدنا الرب بها.

-لكنكم كنتم بحاجة لبلفور كي يتحقق هذا الوعد.

-لن أجادلك ولكني أعدك بأننا سنعاملكم معاملة الدول وليس معاملة العصابات كما يسموننا))[4]

قدَّم هذا الخطاب صوتان اجتماعيان متناقضان،الإسرائيلي الذي يريد فرض وجهة نظره بالقوة التي يمتلكها،على الفلسطيني الذي يسعى للحفاظ على أرضه من الافتكاك بشرعية التاريخ والحق،وهكذا جسدت لنا البنية اللغوية لهذا الخطاب نمط الصراع بين الصهاينة والفلسطينيين،فقد استند "الإسرائيلي على معجم يكرس القوة ويستغل ضعف الآخر(أسرى حرب،استسلموا،تموتوا،الجوع)،وانطلق من خلفية دينية(وعد الرب)حتى يعزز موقفه الاستعماري،ولقد كشف هذا المستوى التعبيري عن قوة وفاعلية المستعمر الذي كان يستند إلى خلفيات تاريخية،ودينية لتبرير فعل الاغتصاب الممنهج لفلسطين ،فيما اعتمد الصوت الفلسطيني على معجم كرَّس تموقعهم كضحية،بعد ما تعرضوا له من ظلم(تعتدون علينا،إخراج الناس،بلادهم)،وقد أبان الصوت الفلسطيني من خلال هذا الخطاب(لكنكم كنتم

بحاجة لبلفور كي يتحقق هذا الوعد)عن قوة امبريالية دعمت الاستعمار وأرست ركائزه في المنطقة،وهي بريطانيا التي أسهمت بوعد بلفور في تحقق الوعد الرباني،و قد أحالتنا هذه البنية المعجمية على صراع بين صوتين حضاريين:صوت القوة الغازية المستعمرة بكل ثقلها المادي وحمولتها الدلالية،وخلفياتها التاريخية،وصوت الذات المستعمرة المقهورة التي وجدت نفسها في مواجهة مع أعتى قوة في العالم،إسرائيل ومن يقف خلفها من قوى عالمية كأمريكا وبريطانيا.

وهكذا يمكننا الجزم أن الإسرائيلي ظهر في نصوص الملهاة عبر بنية معجمية ودلالية،اعتمدت على القوة والعنف لتحقيق مصالحها فاستعملت القتل والذبح والتهجير(إنهم يطردون الجميع،لكن ذلك لم يثنه عن التقدم نحو البيت،وبعد قليل أبصر عائلة سمعان المسيحية خارجة تجرُّ أولادها من هناك،والفزع يملأ ملامحهم:إلى أين تذهب؟قال له سمعان لقد جاءت قوات الهاجاناه وأخذت البيت،لم يبق هناك سوى العائلة اليهودية)[5]،حوى هذا الخطاب فهرسا معجميا أطَّر زمرة معينة و هي الاستعمار(يطردون،الفزع،الهاجاناه)أما الفلسطينيون فقد وقع عليهم فعل الطرد،فانصاعوا راضخين مستسلمين للأمر الواقع،لأنه وجدوا أنفسهم عزلا دون سلاح أمام قوات مسلحة مدربة وهي "الهاجاناه"التي نعتبرها شفرة تحيلنا إلى حقل النزاع العربي الإسرائيلي أيام النكبة،أين عملت هذه الفرقة المدربة على إرساء دعائم الدولة الإسرائيلية،بعد أن بثت الرعب والفزع في صفوف المدنيين ،بالقتل والتذبيح والتهجير(كانت أخبار مذبحة دير ياسين،تملا الأرض وتشغل الناس،وقد كنت تدرك بحواسك كلها ما الذي يعنيه قتل الأبرياء ومداهمتهم في زوايا بيوتهم وذبحهم) [6]

تعكس هذه البنية المعجمية رؤيا واحدة للمحتل الصهيوني،رؤيا تقوم على القمع والبطش والقتل ،لتحقيق الأهداف فكلها كلمات تحيل إلى المعنى ذاته وهو الترويع والإرهاب (مذبحة،قتل،الأبرياء،مداهمتهم،ذبحهم)يزيح هذا المعجم النقاب عن إيديولوجيا صهيونية تعشق سفك الدماء لأن(القتل والإبادة متجذرة في الفكر اليهودي،فالتوراة تحث على قتل وتدمير غير اليهودي) [7]،لهذا وجدنا الطرف الإسرائيلي يظهر في كل الروايات بالوجه البشع نفسه،لعدو مغتصب لا يتوانى عن التقتيل،وإن تطورت أساليب القتل في الروايات التي دارت أحداثها بعد اتفاقيات "أوسلو"مثل روايتي

"أعراس آمنة"و"تحت شمس الضحى"حيث أصبح يعتمد على الطائرات،والصواريخ والقذائف كما أن الصراع أخذ منحى آخر في هذه الروايات بحيث تحول إلى صرع على حد تعبير الناقدة "يمنى العيد"(إذ نقع على معنى واحد ليس الذي يتبادر إلى ذهننا أو الذي قد نفترضه والذي يفيد بأن ثمة حربا يتقاتل فيها طرفان ،بل هو معنى آخر أمين للمرجعية التاريخية،أي لما جرى على أرض الواقع،معنى يفيد عن الاعتداء،عن فاعل ومفعول به،عن طرف يقتل و آخر يقع عليه فعل القتل)[8]، ظهر المستعمر كقوة فاعلة ومهيمنة في النص بينما الفلسطيني هو الذي يقع عليه الفعل دائما ويثبت هذا الحوار الذي جرى بين جندي إسرائيلي وشاب فلسطيني تم توقيفه في حاجز أمني ،ثم فرض عليه الجندي تقبيل فتاة محجبة مقابل تحرك الحافلة التي توقفت لساعات وساعات في ذلك الحاجز، رؤية الإسرائيلي للآخر الفلسطيني(فكرت إنت خر،قرار فلسطيني مستقل،انتم تقولون هذا دائما،بدك يمشي الباص ويمشي السيارات وراه،بتعمل زي ما بقول) [9]يبرز هذا الخطاب الوعي الاجتماعي للطبقة التي ينتمي إليها صاحب القول،وهي القوة العسكرية الإسرائيلية التي تتحكم في زمام الأمور، وتفرض كل ما تريده على الطرف الآخر الذي لا حول له ولا قوة، فهنا تحدث الإسرائيلي بلغة الفلسطينيين ليصل إلى عكس المعنى الذي يحمله الكلام،على سبيل المحاكاة الساخرة حسب باختين فهي(تشبه الكلمة الغيرية التهكمية،ذات الدلالة المزدوجة التي تنقل النزاعات المعادية لها) [10]،فهذا تجسيد خطابي له دلالات عميقة تفيد الوعي الساخر للإسرائيليين من الفلسطينيين ومواقفهم ،لأنهم يتموضعون في موقع ضعف لا يسمح لهم بتقرير أي قرار،وهكذا استطعنا الكشف عن طبيعة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني عبر لغة"الملهاة الفلسطينية"إذ كان لكل زمرة معجمها وفهرسها وشفراتها الخاصة.

2-الصراع الفلسطيني الفلسطيني:

2-1-اتفاقيات أوسلو/انقسام الذات الفلسطينية:

عرف المجتمع الفلسطيني تحولات عميقة في بنيته السياسية نتيجة اتفاقيات أوسلو التي دشنت مرحلة جديدة تنكرت لتاريخ المقاومة وعقدت سلاما وهميا مع إسرائيل(فأصبحت مضطرة في ضوء تعهداتها السلمية لقمع وسحق أية مقاومة مسلحة ضد الكيان الصهيوني،ومحاربة أبناء شعبها الذين يقومون بذلك،ووجدت عمليا سواء

رغبت أم لم ترغب أداة لحماية الأمن الإسرائيلي في مناطقها) [11]،لم ترض شرائح عريضة من أبناء الشعب الفلسطيني ببنود هذا الاتفاق فكانت نتيجة ذلك حدوث شرخ عميق في الجسد الفلسطيني الذي انقسم على ذاته بين مؤيد لقرارات السلطة ومعارض لها ف(سقطت العديد من المبادئ التي كانت تحكم المشهد الفلسطيني وتمثل مرجعيته التي لا غنى عنها حيث سقط مبدأ حرمة الدم الفلسطيني وسالت دماء الكثيرين من الأبرياء) [12]،وقد ارتبطت الملهاة الفلسطينية بواقع فلسطيني متأزم فاستوعبت كافة تحولاته السياسية والاجتماعية وظهرت على شكل صراع إيديولوجيات وخطابات اجتماعية في النصوص الروائية لأنها تعد(ذخرا على الصعيد المعجمي والدلالي والسردي يتيح لفريق اجتماعي أو لفرق عدة متفاوتة النسب أن تطرح مصالحها وتجسدها من خلال الخطاب) [13]،لهذا سنحاول الكشف عن طبيعة النزاعات الاجتماعية والصراعات الإيديولوجية في الملهاة الفلسطينية،من خلال سجلات الكلام المتنوعة التي تجسد فكر ومنظومة قيم كل طبقة اجتماعية؟

2-1-1-الصراع الإيديولوجي:

ارتبطت الأعمال الروائية في مجملها بالايدولوجيا التي ستبقى الهيكل لعام الذي يتشكل وفقه النص الروائي،لأن الايدولوجيا بمثابة (عصب الرسالة المتضمنة في أي اتصال لغوي في مجال النصوص) [14]،أنتجت روايات الملهاة الفلسطينية زمن انهيار المبادئ وانقلاب القيم بعد اتفاقيات أوسلو،زمن اختلاف التوجهات وتضارب المصالح ،وقد تجلى هذا النزاع الاجتماعي بعمق في الخطاب الروائي لأن (البنية النصية تندرج في إطار البنيتين الإيديولوجية والثقافية فتحاور البنية النصية الكبرى التي يتفاعل معها النص،وتغدو العلاقة بين النص والمجتمع علاقة جدلية،كما يتفاعل المؤلف مع منظومة من اللغات الجماعية والإيديولوجية فيستوعبها بحسب رؤيته لها) [15]،تجلى الصراع الإيديولوجي بوضوح في رواية *تحت شمس الضحى*من خلال طبقتين اجتماعيتين متصارعتين إيديولوجيا،طبقة تتبنى الفكر الثوري وتقاوم باستماتة الاحتلال الصهيوني،وتتعرض للاعتقال والتعذيب على يديه ممثلة في "ياسين الأسمر" الذي وجد

نفسه وقبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره في معتقلا في السجون الإسرائيلية [16]،كان "ياسين الأسمر" يعتقل ويبعد عن دياره باستمرار، وأصيب بالعرج نتيجة ما تعرض له من تعذيب لكنه لم يغير مبادئه القائمة على ضرورة التصدي للاحتلال وعدم التخلي عن خيار المقاومة لهذا كان يعارض بشدة اتفاقيات أوسلو ويرى فيها وهما كبيرا(من يعتقد منكم أن اتفاقيات السلام التي أعادتنا للبلاد ،ستعيد البلاد لنا،يحلم في الوقت الضائع،في الوقت الذي عليه أن يعمل أكثر في هذا الوقت) [17]،يؤكد هذا الخطاب المنهج الثوري الذي يتمسك به البطل،ويرى فيه السبيل الأوحد لتحقيق الاستقلال،وضرورة استغلال الوقت وعدم تضييعه في أمور لا طائل منها كالمفاوضات وغيرها من الطرق السلمية التي لا تنفع في مثل هذه الظروف، لان ما اخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة،على الطرف النقيض نجد الطبقة الثانية التي تخلت عن نهج الثورة والمقاومة واعتنقت إيديولوجيا نفعية،أساسها الانتهازية والاستفادة قدر الإمكان مما أتاحه اتفاق أوسلو من امتيازات تتكون من أصحاب السلطة والمال،تجسدت في الرواية من خلال شخصية"الدكتور" الذي يمثل الطبقة البورجوازية التي تشكلت بعد معاهدة السلام مع العدو الصهيوني لأن ((فريق أوسلو الذي أصبح يتحكم في منابع الثروة وصناعة القرار ،ولهذا فقد برزت قضية الطبقية في المجتمع الفلسطيني بعد توقيع الاتفاق،وتجسدت على ارض الواقع حيث ظهر بين أبناء المجتمع الواحد طبقتان: الأولى تعيش حياة مدللة،تتمتع بكل أنواع النعيم ،وأخرى تعاني شظف العيش)) [18]،ظهرت مظاهر الثراء والرفاهية مع *الدكتور*الذي كان يستقل سيارة مرسيدس ضخمة،ويلتقي بشخصيات وشركاء أجانب في مطاعم راقية،ظهر في النص كشخصية فاسدة ومنحلة، متنفذة لها علاقاتها ودورها في الحياة الثقافية ((ولم تتحسن أحوال الدكتور بمجرد إنتاجه لذلك الشريط الذي طبع في تل أبيب (لضمان جودته)وكما نصت الاتفاقية ،ولا بسبب المبلغ المتوفر من طباعة خمسة آلاف نسخة،لم تكن في الحقيقة سوى مئتين،ولكن لان المشاريع انهمرت عليه ولم يكن عليه سوى أن يحصد حقلا هائلا لم

يسبق له أن زرع أي شيء فيه)) [19] يعكس هذا الخطاب الواصف بنية معجمية لنسق فكري تبنته الطبقة الانتهازية في الوطن بعد أسلو(تل أبيب،الاتفاقية،المشاريع،انهمرت،يحصد،زرع)هي شفرات ثقافية اجتماعية تضعنا وجها لوجه مع مثقف مرحلة السلام،الذي أصبح يبيع الأوهام في سبيل تحقيق الأرباح،راميا خلفه كل التزاماته تجاه قضيته ووطنه ،يشرح *الدكتور* أسباب الثراء الذي وصل إليه قائلا ((تنجح في عمل كهذا ،حين تكون قادرا على زراعة الوهم ،وصدقني هؤلاء الأمريكيون لا يريدون منا الكثير،أرقاما تحليلات تغص بها الصحف اليومية،ويريدون أسماء مشاريع براقة متفائلة بالمستقبل)) [20]،يعكس هذا الخطاب الصادم الانسياق التام وراء معاهدة السلام وتوطيدها بالتطبيع مع العدو وعملائه لان من يقول أمريكا فهو يقصد مباشرة إسرائيل،فهي الحليف الاستراتيجي للعدو الصهيوني في المنطقة،والممرر لكل مشاريعها والداعم لعدوانها على الشعب الأعزل.

فالإيديولوجية النفعية التي تلتزم بها الطبقة الاجتماعية البورجوازية تدعم عملية السلام،وتشجع التطبيع مع إسرائيل لهذا تسقط من لغتها كلمة عدو أو مستعمر عند حديثها عن الكيان الصهيوني مثلما يتجلى لنا في هذا الخطاب الصادر عن الدكتور(أما إذا كنت مصرا فالأسلحة أكثر من الهم على القلب وباءمكانك الحصول عليها حتى من الإسرائيليين كما تعرف) [21]يعكس هذا الكلام إسقاط الصهاينة من خانة الأعداء والتعامل معهم كشركاء مثلما تنص عليه الاتفاقيات ،وما هذا إلا تنازل واضح عن ثقافة المقاومة واعتناق الذل والخضوع، لتحقيق الأرباح والغنائم.

أما من يقدم المساعدات ويمول هذه المشاريع فهم (الأشقاء الأجانب) [22] يعكس هذان الملفوظان المفارقات العجيبة التي سيطرت على مجتمع الرواية فكلمة الأشقاء سابقا كانت لصيقة بالعرب لا غير أما بعد أوسلو فأصبحت تصف الأجانب الممولين لقطاع الثقافة في فلسطين ،يظهر هذا المعجم الدخيل في النص كنسق لغوي يحدد إيديولوجية الزمرة الاجتماعية الانتهازية التي تخلت عن وطنيتها تحقيقا لأغراضها

المشبوهة لان (الإيديولوجي هو وعي الجماعات المرتهن بمصالحها في تعارضها مع مصالح جماعات أخرى في المجتمع) [23]،وما هذه الطبقة البورجوازية الصاعدة إلا نتيجة لاتفاقيات أوسلو التي خلقت مثقفا سلطويا يلتزم بأجندات منسجمة مع أجندة الممول الأجنبي،وينتج أعمالا تتوافق ورؤيته التي تعمل على قتل روح المقاومة والتطبيع مع الصهاينة ،كما تجسد في رواية *تحت شمس الضحى* مع شخصية الدكتور الذي ترك مبادئ الكفاح الفلسطيني ،وباع قضية وطنه ،فوطد علاقاته بالأعداء وزيف التاريخ في المسرحية التي تحاكي تاريخ*المقاوم ياسين الأسمر* بما يتناسب مع إيديولوجيته كمنتج للمسرحية يتلقى تكاليفها من ممول أجنبي،فالدكتور هو شفرة ثقافية أحالتنا مباشرة إلى فئة فلسطينية مثقفة تسلمت((إدارة جمعيات ممولة من هذه الدول تحت عنوان الديمقراطية وحقوق الإنسان ،واخذوا ينفذون برامج ....من اجل تعزيز الاحتكاك الفلسطيني الإسرائيلي الهادف للتطبيع ،ظهر قادة للتطبيع ينادون باللقاءات المشتركة مع الإسرائيليين))[24]،لم يستسغ الدكتور ما تحويه المسرحية من مشاهد طويلة تحكي قصة كفاح بطل ثوري بامتياز في زمن لم يعد فيه للبطولة مكان بين هؤلاء المهرولين نحو ما يتساقط من فتات موائد الممولين، لهذا لم يتوان عن حث سليم عن اقتطاع كل ما يحكي عن رجولة بطل ملحمي من زمن لم يعد له وجود في ظل اتفاقيات السلام الوهمية (التمويل هو أكثر الأمور سهولة،ببساطة يمكن أن نجده.لكن المشكلة قائمة في النص نفسه.هناك أشياء كثيرة يجب التخفف منها،كي يكون باستطاعتك التحليق...بذمتك مسرحية فيها مشهد كهذا من المجنون الذي سيمولها اليوم هنا) [25]عندما يصبح التاريخ عبئا يجب أن نتخلص منه حتى نحلق في عالم الأرباح،نتأكد أن القطيعة قد حصلت بشكل قاطع مع الذاكرة ،وتم استبدالها بذاكرة جديدة براغماتية تتلائم وإيديولوجيا الممول الذي لا هم له سوى خدمة الأغراض الصهيونية وتوطين أركانها على أرض فلسطين ،انه زمن انقلاب القيم والقضاء على الوطنية ،زمن (انحلال نخبة فلسطينية في حقبة وطنية مهزومة تبعث على التداعي، و انهدام القيم،وثانيهما الإشارة إلى سياسة

ثقافية تعادي القيم الثقافية –الوطنية)[26]،ازدحمت الرواية بالكثير من الخطابات التي أسهمت في بناء معجم نصي دال على انحراف الثقافة عن دورها المنوط بها كأداة للتوعية وتعميق الروح الوطنية،بعد أن توجهت النخبة الفلسطينية المثقفة بعد أوسلو إلى طريق التطبيع وجني ثمار معاهدات السلام((قطاع الثقافة بحر، بحر من المشاريع لا حدود له صدقني!بعد نجاح الدكتور بإقناع أصدقائه الأجانب ،بإنتاج خمسة آلاف شريط جديد)) [27]، يمكننا أن نعتبر هذه البنية المعجمية (مشاريع،أصدقائه الأجانب،إنتاج) نظاما مؤطرا للهجة اجتماعية تخص طبقة بورجوازية صاعدة تستغل الثقافة كمكتسبات فكرية و إبداعية لتحصيل فوائد مادية بحتة فاغتيل بذلك الجانب المعنوي في هذا القطاع أمام كل التجاوزات التي ينتهجها المنتجون،وتصب كل هذه التصرفات في سياق((الافكار الرنانة عن البراغماتية الواقعية التي يطلقها عن عملية السلام كبار المفكرين والاستراتيجيين...يقوم بصياغتها العديد من مثقفي الطبقة الوسطى)) [28].

في المقابل نجد الطبقة الاجتماعية المقاومة تتناقض والأولى فكريا،لأنها تتبنى إيديولوجيا الثورة وتتحدى الكيان الصهيوني،تمد جسور التواصل مع التاريخ النضالي للشعب الفلسطيني فتقاوم بكل استماتة عنجهية العدو وجبروته((لم اشرب الشاي ولم انتحر بناء على رغبة المحقق ولك أكن واثقا بجسدي وعقلي مثلما كنت واثقا بهما ذلك اليوم ،قد يسألني احد:ولماذا؟وعندها سأقول:أنني تجولت فيه هناك،تفقدته ،تحسست بروحي كل جزء،ولم أجد سوى ثغرة واحدة هي ذلك الكسر الذي في ذراعي وعندما وصلته صحوت على ألمه))[29]يعكس هذا الخطاب القمع الذي يتعرض له المعتقل الفلسطيني في السجون الإسرائيلية،لكنه يبقى ثابتا ولا ينحني ولا يستكين.

ارتبطت شخصية *ياسين الأسمر*بايدولوجيا ثورية طيلة عملية القص، مما خلق معجما لغويا قائما على قوة المواجهة والصمود في وجه المحتل الغاشم،ورفض كل التنازلات التي قدمها غيره في ظل عملية السلام ،واعتبر العودة لأرض الوطن عودة

منقوصة في ظل معاهدات تثبت أقدام الاحتلال على الأرض وتغيب الفلسطيني وتقيده أكثر فأكثر(ما الذي يعيدني إلى حرية ناقصة إلى هذا الحد،وأجبت حرية ورائي تفوقها نقصانا) [30]يضعنا ملفوظ(حرية ناقصة)في قلب الصراع الفلسطيني الصهيوني لان اتفاقيات أوسلو التي منحت بعض اللاجئين حق العودة إلى مناطق دون أخرى ،لم تمنحهم حريتهم واستقلالهم بل كبلتهم ببنودها المجحفة،خصوصا بعد أن تحولت منظمة التحرير الفلسطينية من جبهة وطنية تقاوم الاحتلال،وتتوق للحرية إلى سلطة تحمي مصالح العدو،وتضع حدا للمقاومة هكذا يتضح أن اتفاق أوسلو لم يعطي اللاجئين حق العودة إلى ارض وطنهم لأنه (يسلم بفصل قضية القدس عن سائر الأراضي الفلسطينية المحتلة...وهو يجيز استمرار الوجود العسكري الإسرائيلي في سائر مناطق الضفة والقطاع، ويتجاهل صفته كوجود احتلالي وينطوي بالتالي على تحويل الأرض المحتلة إلى (ارض متنازع عليها)وهو يتجاهل قضية اللاجئين الذين يشكلون60 بالمئة من شعبنا الفلسطيني ويترك مصيرهم مفتوحا لمخططات التوطين والتهجير)[31]،اذن هي عودة إشكالية منذ البداية تحمل في طياتها نوايا مبطنة للاحتلال،الذي يهدف إلى ابتلاع باقي المناطق بالتدريج،لهذا كان البطل متأكدا منذ البداية من زيف الرجوع فلم يستطع أن يقبل الأرض عند عودته،وفوقها صهيوني((أعدك أنني سأقبله ذات يوم أمامك،أمام الجميع،سأناديك،وأقول لك يا خال ادع الناس،لم يعد فوق هذا التراب أي جندي،وقد حان الوقت لقبلة من هذا النوع)) [32]،كان *ياسين الأسمر*يعبر عن وعي الفئة الرافضة لهذه الاتفاقيات وهذه العودة الناقصة للوطن،لكن كان يحدوه أمل في أن يكمل مسيرته النضالية داخل الوطن،بعد أن كان يقاوم خارجه من المخيمات ((لكن الشيء الذي كان يعيده إلى ذاته،أن عشر سنوات تنتظره على الأقل ،هناك أمامه،كي يفعل شيئا ما،مهما ربما،يفسر له هذه العودة)) [33]،أراد نصر الله أن يخلق صوتا رافضا للخيانة والتواطؤ،داعيا لاستمرارية الفعل الثوري لأنه الحل الوحيد لتحقيق الحرية،فكان بذلك بطلا يصارع واقعا مأساويا

يخذل فيه الشرفاء من أبناء الوطن،ويكرم فيه الخونة واللصوص و((يجسد تراجيديا مفجعة،تعارض الفرد بالتاريخ والرغبة الفردية بحركة المجتمع)) [34] فجسد بذلك *ياسين الأسمر*الايدولوجيا الوطنية التي لم تتخل عن المقاومة طيلة عملية السرد،وكان في صراع مستمر مع طبقة فاسدة تتبنى إيديولوجيا نفعية،تركت طريق المقاومة وترى في الانتهازية السبيل الأنجع لتحقيق أغراضها،تجسدت في شخصية الدكتور في رواية تحت شمس الضحى،الذي كانت لديه علاقات وطيدة مع أهل القرار في الوطن،يتحرك بسهوله ويحقق كل ما يصبو إليه،وكل هذا يشي بالفساد والاستهتار بمصلحة الوطن،وضياع حقوق المواطن البسيط بين الأقدام (-هل تعرفه شخصيا؟

-من؟

-رئيس التحرير،يا عم خليك معاي؟!

-معك! لا.لا اعرفه

-أرجو ألا تكون من أصحاب الواسطات الكبيرة التي حجمها اكبر من حجم البلد.) [35] إن كلمة (الواسطات) مشحونة واقعيا وإيديولوجيا،لأنها تحيلنا إلى واقع فلسطيني هش يقوم على المصالح الخاصة،ويتجاهل المصلحة العامة في ظل سلطة فاسدة تعاني من(استشراء الفساد المالي والإداري ،ومن مظاهر الترف والتنفيع والواسطة والمحسوبية) [36]،وقد كانت المطاعم الفخمة هي المكان الذي يأوي إليه أصحاب المناصب والمتنفذين في الدولة،ومتصدري المشهد السياسي في فلسطين لعقد الصفقات المشبوهة والاستثمار في أموال الشعب،ويرتاده*الدكتور*باعتباره (نصاب المشاريع) [37] كما وصف في النص،للالتقاء بالأشقاء الأجانب والاستفادة من التمويلات(بعد أقل من ساعة كان المطعم قد تحول إلى خلية نحل،وانشغل الناس ببعضهم بعض ،هنا بإمكان المرء أن يرى من يعرفهم ومن لا يعرفهم سوى على شاشات الفضائيات سياسيين مثقفين،صحفيين،شعراء،رجال مال،أعضاء في المجلس التشريعي،رافضين وقابلين) [38]،تعكس هذه البنية المزدوجة(رافضين وقابلين)الازدواجية التي تسيطر على مجتمع

الرواية حيث تجتمع كل أطياف المجتمع في المكان ذاته،بما في ذلك الموالين والمعارضين للسلطة لتحقيق المصالح المشتركة، والتي في معظم الأوقات لا علاقة لها بمصلحة الوطن.

وإذا كان *نصر الله*جسد الطبقة البورجوازية الصاعدة ذات الايديولجيا النفعية في شخصية *الدكتور* في رواية *تحت شمس الضحى*فإنها تمثلت في شخصية*حضرته*[39] في رواية *زيتون الشوارع*الذي كان يستغل منصبه كجهة متنفذة في البلد لتحقيق أغراضه الدنيئة،لم يسم"نصر الله"هذه الشخصيات الفاسدة المهيمنة على موارد الوطن بأسماء واضحة،وإنما أطلق عليها ألقابا حتى يحد من خصوصيتها ويعرضها كحالة عامة تسود المجتمع، وتخص شريحة عريضة من أبنائه ونقصد هنا أصحاب السلطة والنفوذ،أسهمت هذه الخطابات الواصفة للسلطة الفلسطينية الفاسدة في بناء معجم نصي يعكس الانتهازية واستغلال المنصب وانتشار المحسوبية والفساد،تمفصلت وحداته ضمن بنى خطابية كانت وسيطا بين روايات "الملهاة الفلسطينية" والسياق الذي أنتجت خلاله مابين تسعينات و ألفينات القرن الحالي،أي بعد اتفاقيات أوسلو،مما أنتج لغة واقعية جسدت عمق الانتهاكات وفظاعة التجاوزات المرتكبة في حق القضية الفلسطينية،و الشعب الفلسطيني داخل الوطن وخارجه،من طرف إخوانهم مما عقد الأمر أكثر.

كما جسدت لنا "الملهاة الفلسطينية" أيضا الأيديولوجيات الوطنية المتصارعة بين فصائل المقاومة الفلسطينية في رواية *أعراس آمنة* ،التي تمثلت هذا النزاع عبر أخوي "لميس"اللذين ينتميان الى تنظيمان مختلفان وكثيرا ما يتشاجران ويتشاحنان من أجل هذا الأمر ((أخوينا اللذين ظلا يتشاجران طول الوقت كل واحد منهما يدافع عن تنظيمه.يتشاجران،دون أن يتذكرا أن رأسهما مطلوبان لرصاصة واحدة.فتتدخل أمي لحسم الخلاف وهي تقول لهما:مش عارف على إيش بتتقاتلوا ،ماهو،إذا كنت مع (حماس) إسرائيل بتقتلك،وإذا كنت مع(الجهاد)إسرائيل بتقتلك،وإذا كنت مع (فتح) أو

مع (الشعبية) أو (الديمقراطية) إسرائيل بتقتلك)) [40]،يعكس هذا الخطاب المستوحى من عمق الواقع الفلسطيني الانقسامات التي ترهق المواطن،وتقضي على أماله في تحقيق حرية أرضه يوما من الأيام لان الوحدة الوطنية هي أساس المقاومة الفعالة والجادة،وقد انعكس هذا الانقسام الأيديولوجي السياسي بين الفصائل الفلسطينية سلبا على الحياة الاجتماعية للفلسطينية بعد أن أصبحت الانتماءات الحزبية هي التي تتحكم في الحصول على أبسط الأمور،فالتعيين في مناصب العمل مثلا كان يتم ((وفق الولاء الحزبي و الفصائلي)) [41]،وقد لمسنا هذا الانقسام أيضا في رواية"زيتون الشوارع"من خلال استشهاد "ايمن" ابن "الست زينب"،وجهلها للجهة التي اغتالته مما يشي ضمنا أن القاتل هنا ليس هو العدو الصهيوني((لكنني لم أراجع،ولم أكن أريد أن اقبض ثمن دمه ،دمه الموزع على أكثر من يد)) [42]،إن عبارة" دمه الموزع على أكثر من يد" شفرة سياسية تضعنا وجها لوجه مع الاقتتال الداخلي الذي سيطر على الوضع الفلسطيني ،حيث أصبحت كل الأطراف موضع اتهام بعد أن تفرق الإخوة، وأصبحوا أعداء،وتعود بذور هذا الانقسام إلى اتفاقات أوسلو المبرمجة من طرف العدو الصهيوني لتصفية القضية الفلسطينية داخليا،وهكذا كانت الملهاة الفلسطينية فضاء رحبا†

05-الهوامش:

1- بيير زيما، النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص، ترجمة عايدة لطفي،دار الفكر للدراسات، ط1،مصر، 1991،ص175

2- سعيد يقطين،انفتاح النص الروائي،المركز الثقافي العربي،ط3،(لبنان،المغرب)،2006،ص135.

3- إبراهيم نصرالله،زمن الخيول البيضاء،منشورات الاختلاف،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط2،(الجزائر-لبنان)، 2008،ص496.

4-زمن الخيول البيضاء،ص498.

5- زمن الخيول البيضاء،ص477.

6- إبراهيم نصر الله،طفل الممحاة،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط3،لبنان،2012،ص118.

7- محمد عمر الحاجي،الإرهاب الصهيوني،دار المكتبة،سوريا،2002،ص22.

8- يمنى العيد،الرواية العربية المتخيل وبنيته الفنية،دار الفرابي،ط1،لبنان،2011،ص93.

9 -م ن،ص58

10- ميخائيل باختين،شعرية دوستوفسكي،ترجميل نصيف التكريتي،دار توبقال،ط1، (المغرب-العراق)، 1986،ص283-284.

11- محسن محمد صالح،فلسطين دراسات منهجية في القضية الفلسطينية،مركز الإعلام العربي،ط1،مصر، ص457-476

12-عبد العليم محمد،القضيّة الفلسطينية في مفترق الطرق،مركز المحروسة للنّشر،ط1،مصر، 2009،ص10.

13-بيير زيما،النص والمجتمع آفاق علم اجتماع النقد،ترجمة أنطوان أبو زيد،المنظمة العربية للترجمة،ط1،لبنان، 2001 ،27.

-14 نصر حامد أبو زيد،النص،السلطة،الحقيقة،المركز الثقافي العربي،ط1،(لبنان ،المغرب ،1995ص99.

15-نزيه الخليفي،البناء الفني ودلالاته في الرواية العربية الحديثة،الدار التونسية للكتاب،تونس،2012،ص193.

16- إبراهيم نصر الله،تحت شمس الضحى،منشورات الاختلاف،الجزائر،دار العربية للعلوم،ناشرون،لبنان،ط2009،2،ص33.

17- م،س ص14

18 -حسن محمد حسين الصليبي،الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض المحتلة بعد أوسلو،ماجستير،جامعة غزة،فلسطين،2008ص15.

19 -تحت شمس الضحى،ص30

20 - تحت شمس الضحى،ص310

21- م ن،ص 161.

22 -م ن،ص ن.

23- نصر حامد أبو زيد،النص،السلطة،الحقيقة،م ن،ص ن.

4 2-حنان ظاهر محمود عرفات،أثر اتفاق أوسلو على الوحدة الوطنية الفلسطينية وانعكاسه على التنمية السياسية،ماجستير، جامعة نابلس، فلسطين،2005 ص 89.

25- تحت شمس الضحى ص94-95.

26- فيصل دراج،الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن النهضة إلى زمن السقوط،مركز دراسات الوحدة العربية،ط1،لبنان،2008،ص221.

27 -تحت شمس الضحى،ص31.

28 -ادوارد سعيد،أوسلو 2سلام بلا ارض،دار المستقبل العربي،لبنان،1995،ص10.

29 -تحت شمس الضحى،ص35.

30 -م،ن،ص43.

31- قيس عبد الكريم،سلام أوسلو بين الوهم والحقيقة،شركة التقدم العربي،ط1 (لبنان، سورية) ، 2001،ص8.

32- تحت شمس الضحى،ص45

33- م،ن،ص44.

34-عمار بلحسن،صراع الخطابات القص والأيديولوجيا في رواية الزلزال للطاهر وطار،منشورات التبيين،تصدر عن الجاحظية، الجزائر،عدد،7 ،1993 ،ص130.

35- تحت شمس الضحى،ص66.

36- محسن محمد صالح،السلطة الوطنية الفلسطينية دراسات في التجربة والأداء،م ن،ص343.

37- تحت شمس الضحى،ص129.

38- تحت شمس الضحى،ص130

39- زيتون الشوارع،إبراهيم نصرالله،منشورات الاختلاف،ط2،الجزائر،2009

40- أعراس آمنة،ص39.

41 -ادوارد سعيد،أوسلو 2سلام بلا أرض،ص10.

42- زيتون الشوارع،ص11.